

تجاذبات بين اللغة والمجتمع

أ: فريد خلفاوي

جامعة حماة لخضر الوادي

ملخص:

تتناول هذه الدراسة قضية هامة من قضايا البحث اللغوي، إذ تتعرض إلى أهم العلاقات الحاصلة بين اللغة والمجتمع باعتبار أن اللغة أحد أهم ركائز المجتمع الذي يقوم عليها نشأة وصيرورة وتطورا. فاللغة باعتبارها الوسيلة الأهم في قيام المجتمعات واستوائها واستقرارها وربما أمدها، وهي العنصر الذي يدخل في نشأة كل العناصر المشكلة لهذه المجتمعات، بل تبقى ملازمة لها، لأن تلك العناصر مهما كانت لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تستغني عن اللغة استغناءً كلياً، من هنا حصلت علاقات هامة بينها، فظهور العلوم والمعارف المختلفة بشكل عام يظهر ويتطور ويستمر عبر اللغة، وينقل بها من جيل إلى جيل.

SUMMARY:

This study deals with an important issue of linguistic research, as it is exposed to the most important relations between language and society, since language is one of the most important pillars of society, which is based on the emergence and development and development.

Language is the most important means of creating, equating, stabilizing and possibly prolonging societies. It is the element that comes into the creation of all the problematic elements of these societies, but remains inseparable from them, because these elements, in any case, can not dispense with the language completely. The emergence of different sciences and knowledge in general appears, develops and continues through language, and is transmitted from generation to generation.

توطئة:

لا شك أن المجموعات البشرية قد جهدت -منذ العصور التاريخية الأولى- في سبيل الوصول إلى التواصل والتفاهم بينها، ولعلها تدرجت في هذه السبيل عبر أزمان مختلفة ، فاتخذت من الإشارات والحركات والأصوات والرموز وسائل تعينها على تحقيق هذا التفاهم بينها، ثم انتهت هذه الجهود المتصلة باستخدام اللغة وسيلة لهذا التفاهم ، واللغة أهم ما وصل إليه الإنسان من وسائل التواصل والتفاهم؛ لما تمتاز به من اليسر والوضوح، ودقة الدلالة، ولأن كثيرا من العواطف والمعاني الوجدانية لا يمكن التعبير عنها إلا باللغة، وغير ذلك من المزايا، وبذلك تقوم اللغة بوظيفة كبرى في الحياة الفردية والاجتماعية.

ويرى الكثير من علماء اللغة القدامى والمعاصرين أن اللغة واحدة من الخصائص التي تقتصر على النوع الإنساني في مكوناتها الأساسية، لما تميّز عن غيره من المخلوقات.

1 اللغة وتشكيل عقل الإنسان:¹

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وميّزه عن غيره من المخلوقات بميزات كالعقل والنطق، والعقل في اللغة هو الربط، وقد ورد عن الرسول - صلى الله عليه وسلم-: «اعقلها وتوكل»² بمعنى الربط، والعقل من الإنسان هو الميزة التي تضعه في مكانة أسمى من الحيوان، وذلك لقدرته على الربط بين الأمور واستخلاص الوجود بكيئته، أما النطق فهو حمل هذه الأمور في الوجود وربطها ببعضها البعض حتى إخراجها من القوة إلى الفعل المجرد عبر وسيلة الروامز إليها من الكلام الذي هو اللغة أو لغات الناس على تنوعها.³

ومهما اختلفت اللغات وتنوعت فهي تتدرج تحت هذه الغاية، من هنا فإن فهمنا للعالم لا يمكن أن يحصل إلا من خلال هذه الوسيلة، وكلما كانت الوسيلة أغنى وأحكم كان فهمنا للعالم أعمق، ومثلما منحنا إمكان التحكم في اللغة، فللغة أيضاً خاصية التحكم فيها، إذا لم نطوّعها طوعتنا، وإن لم نملكها ملكتنا، فنصير عبيداً لها لا نعرف طريقاً للخلاص، فتأتي أفعالنا مشوهة كلغتنا.

يرى ابن خلدون أن الدور الذي تلعبه اللغة في بناء معتقدات الإنسان وأفكاره، وصياغة توجهاته وسلوكياته دور خطير، وذلك من خلال الطرق التي تشتغل بها اللغة، في مستوياتها وتجلياتها المختلفة؛ سواء أكانت نسقا ذهنيا أم منتجا كلاميا، لغة حياة يومية أم نتاج عبقرية أدبية، خطابا دينيا أم خطابا سياسيا.⁴

ويقول في موضع آخر من المقدمة: « والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها، فإنها خفية »⁵، أي أن السياسي يجب أن يكون واعيا بالمفاهيم والمعاني التي تؤديها اللغة وفق الوقائع الخارجية والأحداث الواقعة في العمران، دون الحكم من خلال المعاني والمفاهيم الذهنية، ولهذا استبعد العلماء عن السياسة، حيث عقد فصلا في ذلك سمّاه "في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها"، إذ يرجع السبب في ذلك: « إنهم معتادون النظر الفكري والغوص على المعاني، وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن، أمورا كلية عامة؛ ليحكم عليها بأمر على العموم، لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس. ويطبّقون من بعد ذلك الكلي على الخارجيات، وأيضا يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها، بما اعتادوه من القياس الفقهي»⁶

ويذهب "عبد السلام المسدي" مذهبا قريبا من مذهب ابن خلدون، إذ يرى أن هذا الدور الذي تلعبه اللغة من شأنه أن يوقظ النائم والساهي والغافل والمتغافل العربي وكل غيور على لغته، ليدركوا ما الذي تفعله اللغة بهم، وما الذي يمكن أن يفعلوا هم بها إن ملكوا زمامها، ولا يملك الزمام نائم أو ساه أو غافل أو متغافل.⁷

في مقال له منشور في مجلة العربي يفتتح الدكتور "عبد السلام المسدي" كلامه عن كتابه "السياسة وسلطة اللغة" بقوله: «على شطرنج الأحداث تكتوي اللغة بنيران السياسة، ويسلم من بعض الأذى من يأخذ الأشياء على عواهنها، ويلوذ بالسلامة من يقف عند الخبر الواحد ثم يتناساه قبل أن يطرق بابه الخبر الجديد، أما من كان من أقداره أن يتابع، وأن يرصد، وأن يجمع الأشتات، ويؤلف بين الهوامل، فأوجاعه باللغة أشد وأشقى»⁸

وبهذا يتضح الدور الخطير الذي تلعبه اللغة في تشكيل عقل الإنسان، لما لها من أهمية عظيمة في بناء فكره وصياغة توجهاته، ويقدر امتلاك الفرد للغة يكون عمق فكره. من هنا وجب على القائمين على التعليم خاصة تعليم اللغات تطوير ملكة التعبير لدى المتعلمين، وإكسابهم اللغة وفق منهجيات وآليات مدروسة تتوافق وخصائص المتعلم واهتماماته وحاجياته ومحيطه.

يعالج ابن خلدون قضية هامة مفادها التفريق بين ما هو نظري في صناعة اللغة (العلم بالقوانين) وبين ما هو تطبيقي بالاستعمال، حيث يرى أن اللغة تستحكم في الفرد بالاستعمال والمداومة عليه، ولا تحصل بمعرفة القوانين النظرية⁹، وهذه قضية لا ينتبه إليها القائمون عليها في العالم العربي، والنتيجة في النهاية بروز أجيال جديدة هي أبعد ما تكون عن القدرة على الربط بين الأمور وإخراجها من القوة إلى فعل الكلام، ولنقارن مثلاً برامج تعرض مقابلات مع أطفال أو فتيان صغار في التلفزيونات العربية، مع مثيلاتها لدى الشعوب الأخرى، وملاحظة البون الشاسع بينهما.¹⁰

والملاحظ أن القدرة على التعبير لدى أطفال العالم أكبر بكثير وأغنى وأعمق من تعبير الأطفال العرب، الذين يصابون بالارتباك والبلبلة حينما يتكلمون، ولا يستطيعون تقريباً إيصال جملة سليمة للمخاطب، وكثيراً ما تصاب بالصدمة من عمق هذه الفجوة كلما شاهدت وقارنت.¹¹

ولاشك أن الإنسان لا يستطيع أن يفكر دون وسيلة اللغة، وإذا كانت لغته فقيرة يكون حتماً تفكيره فقيراً، وبالتالي ما ينتج عن هذا التفكير يكون بحجم عمق هذه اللغة.

2 - اللغة وعلم الاجتماع:

إذا كانت اللغة اتفاقات جماعية بين أفراد المجتمع، والمجتمع وحدة منسجمة كوعي جمعي، ورغم وجود لغات داخله، لكنها لغات جماعية تنتمي إلى طبقات اجتماعية معينة في المجتمع الواحد، كاللغة التي تتحدث بها الطبقة البرجوازية أو لغة الخطابات العلمانية أو لغة الخطابات الدينية، أو لغة الخطابات السياسية أو الاقتصادية، فضلاً عن وجود لغة خاصة

بالمؤسسات الاجتماعية المختلفة كلغة العسكر ولغة البوليس ولغة الفلاحين ولغة الحرفيين وغيرها.¹²

هذا التباين الاجتماعي والثقافي بين طبقات أفرز تباينا في خطاباتها، فكل مجموعة من الطبقات السابقة الذكر تتبنى خطابا معيناً خاصاً بها، يقوم هذا الخطاب على مستويات تركيبية ودلالية معينة، قد تتنافر هذه التراكيب والدلالات المستعملة مع خطابات الطبقات الاجتماعية الأخرى، لأن هذا الخطاب المستعمل من قبل جماعة معينة يعبر عن المخزون الفكري والثقافي الذي تختزنه هذه الجماعة، وتمثل العلاقة الوطيدة بين المخزون الفكري والثقافي لكل جماعة والوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه، حيث يفسر لنا هذا النشاط اللغوي العلاقة القائمة بين الأدب باعتباره لغةً من جهة، وبين المجتمع باعتباره جماعة لغوية من جهة أخرى.¹³

وإذا كان علم اللغة الحديث يرى أن اللغة أداة ذات نظام معين شأنها في ذلك شأن أية أداة أخرى يتوسل بها الإنسان في حياته لقاء تلبية حاجياته، لأنه ينطلق من المنحى المجرد لدراسته للغة حيث يدرسها لذاتها ومن أجل ذاتها، فيجردها من رداها المعنوي الإنساني، ويتعامل معها كأنظمة وتراكيب مادية مجردة، حيث يقرر "دو سوسير" رائد هذا الاتجاه بأن موضوع علم اللغة هو دراسة اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها، إلا أنه يقرر في الفصل الثالث من محاضراته أن الكلام إلى جانب كونه نظاماً ثابتاً ومتغيراً معاً له جانب فردي نفسي فكري وجانب اجتماعي علائقي، ولا يمكن أن نتصور أحد هذين الجانبين مستقلاً عن الجاني الآخر.¹⁴

من هذا المنطلق قامت دراسات عدة تربط اللغة بالمجتمع، وتحدد العلاقات الحاصلة إزاء هذا التفاعل، وتكشف عن حقيقته ومساره، وحقيقة تأثير كل عنصر منهما في الآخر وتأثره به، وكيفية دراسة كل عنصر منهما عن طريق الآخر، ومن ثم تطورت هذه الدراسات وتشعبت، وتفرعت عنها آراء متباينة ونظريات مختلفة، حتى صارت علوماً مستقلة برأسها، منها علم اللغة الاجتماعي، وعلم الاجتماع اللغوي، وعلم اجتماع الأدب، وغيرها من العلوم التي تربط اللغة بمجتمعها أو بجزء منه.

3 - علم اجتماع اللغة:

إذا كانت دراسة اللغة ترتبط بمفهوم فردي نفسي ذهني في اكتسابها وتعلّمها، فإنها ترتبط بمفهوم جمعي اجتماعي في ممارستها وتعليمها، ففي أحضان المجتمع تكوّنت اللغة ونمت، ووجدت يوم أحسّ الناس بالحاجة إلى التفاهم والتواصل فيما بينهم وترتبت وترعرعت، فاللغة هي الواقع الاجتماعي بمعناه الأوفى، تنتج عن طريق الاحتكاك الاجتماعي بين أفراد المجتمع، وتأخذ ألفاظها ومعانيها وتراكيبها وصورها من محيطه، وتكتسب دلالاتها من ثقافته، وصارت بتلك العوامل من أقوى الروابط بين الجماعات، وهيأت أسباب استقرار المجتمعات وتطورها.¹⁵

والمجتمع المتجانس في علاقاته الاجتماعية المختلفة تبعا لوحدة الأصول المشتركة، التي تتجسد في وحدة الدين ووحدة الثقافة والتاريخ المشترك، وحتى وحدة الجنس¹⁶، وكذلك أنماط العيش المشتركة، يكون فيه التواصل يسيرا، واللغة المتواصل بها تتفوق في كل المجالات لأنها متداولة فيها ويفهمها الجميع، وإذا حدث تحوّل ما في العلاقات الاجتماعية المتجانسة، وانتقلت إلى طور الاندماج غير المتجانس ظهرت إمكانات اختلال نظام التواصل القائم على السليقة.¹⁷

وعليه فإن أية دراسة للغة لا بد أن تراعي خصائص المجتمع الذي نشأت فيه وترعرعت، والظروف التي نشأت فيها، فخصائص كل مجتمع تتحكم إلى حدّ كبير في لغته، بل إن المجتمع يطبع جميع خصائصه ومميزاته في لغته.

4 - وظيفة النحو الاجتماعية:

إذا كان النحو مستوى هاما يتداخل مع باقي مستويات اللغة، فهو ذو وظيفة اجتماعية هامة، حيث تكمن أهميته في الإبانة عن قصدية المؤلف ومراده، يقول ابن خلدون في ذلك: «والذي يتحصّل أن الأهم المقدم منها هو النحو، إذ به يتبيّن أصول المقاصد بالدلالة فيُعرّف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجُهل أصل الإفادة»¹⁸

ويرى الدكتور "إبراهيم فضل الله" أن هذه القصدية ظاهرة معقّدة، وتعقيدها له علاقة مباشرة بقابلية التكرار التي يمكن أن تُضعف التماسك الدلالي للنص أو أن تقوّيه وتعزّزه،

فتكرار أفعال الكلام مثلا من شأنه أن يكشف بوضوح عن هذه القصدية، وتُمكن الباحث من الوصول إلى قصد المؤلف.¹⁹

إن التركيب في أية لغة من اللغات له وظيفة اجتماعية من خلال البنيات النحوية والسردية، فبنىات النص تُشكّل كونا مستقلا ذاتيا لأنها تحاكي الواقع وتُعيد إنتاجه، فالإنسان الذي يحكي أحداثا تاريخية يزعم محاكاة الواقع في خطابه، لأن هذا الزعم مبني على أصول نفسية واجتماعية.²⁰

5- أثر لغة الإعلام:

اللغة ظاهرة اجتماعية، بعلوها يعلو المجتمع وبانخفاضها وتراجعها يتراجع المجتمع، وأية أمة تنشأ النهضة والرقي بلغتها، حيث تستعمل كل الوسائل والأساليب المتاحة، وأهمها الإعلام، فوسائل الإعلام المختلفة هي نتاج مباشر للرقي والانفتاح، ويكون هذا الإعلام بلغة المجتمع، حيث يختار أصحابه لغةً رصينة بسيطة يفهمها الجميع حتى تصل إلى أذهانهم، وتضمن بذلك وصول المقاصد إلى جميع أفراد المجتمع، فضلا عن تلقّيهم لتلك اللغة وسماعهم إياها، فيتعودون عليها ومن ثم يكتسبونها، ولهذا نجد بعض الدول اعتمدت وزارات للإعلام وأجهزة خاصة بها من أجل تطويره وتطوير لغته، لأنها وَعَتْ بأهميته في توجيه المجتمعات، وبما يقدمه من أفكار من شأنها أن ترقى بالمواطن، وبدوره في توعية الأفراد وتحسيسهم بالانتماء.²¹

ولاختيار الألفاظ في الاستعمال الإعلامي دور خطير، فإذا استعمل الإعلامي اللفظ العفيف والدقيق فقد يقتفي أثره الناس، أما إذا أحاطه بكلمات فيها إسفاف ورداءة فمن المنتظر أن يتم استخدامها من طرف الجمهور، فاللغة الإعلامية تصبح جزءا من حياة المجتمع، وعلى قدر اتساعها وانتشارها يكون تأثيرها.²²

إن اللغة الإعلامية تكتسي أهمية بالغة في حياة المجتمعات، وتظهر هذه الأهمية في تأثيرها على لغة الناس، باعتبارها جزءا من لغاتهم، يسمعونها في كل وقت وبشكل مستمر، فيسمعونها ويفهمونها ومن ثم يستعملونها.

لا شك في أن وسائل الإعلام بصورة عامة والصحافة بصورة خاصة أدت دورا لا يستهان به في شحن اللغة بمدلولات وإيحاءات مستجدة في العصر الحالي، وإن اللغة الإعلامية تعاضم دورها في هذا العصر لإشباع حاجات تلون التعابير والمفردات الإعلامية، حيث دخلت آلاف التراكيب النحوية والمعربة والمترجمة إلى العربية، واكتسبت بعض المفردات معانٍ جديدة، فضلا عن صياغة أوزان صرفية جديدة معانيها متماشية مع واقع وظروف العصر، مما أصبحت الآن من صميم اللغة العربية المعاصرة، حيث جعلت هذه اللغة اللغة الإعلامية -اليوم- جزءا لا يتجزأ من كيائها اللغوي، ومرآة لها، كونها حصيلة العلاقة بين اللغة والكلام من جهة، والرسالة الإعلامية من جهة أخرى، وتتولد سماتها من ذلك التفاعل والتبادل بين تلك الأطراف، بما يشتمل عليه من ثبوتية وتغيير بالشكل الذي تكون له من النثر العادي أفته وسهولته الشعبية، وله من الأدب حظّه من التفكير وعذوبة التعبير، وبهذا أصبحت اللغة الإعلامية اليوم روح اللغة العربية المعاصرة وسلطانها، فضلا عن دورها الكبير في التقارب اللغوي بين اللهجات، مما أضحت مفهومة لدى سكان جميع الأقطار العربية أو الناطقين بها، بل أصبحت طعاما جماهيريا يسوغ في الأفواه كما يجري على الأقدام.²³

5 1 - الدلالات الإيحائية:

إن لغة الإعلام تكتسي دلالات إيحائية كثيرة يُضمّنُها الإعلاميون في خطاباتهم وتصريحاتهم مضامين إيديولوجية معينة، ويُضفون عليها صفة الشرعية لتقبّل أفكار معينة بُغية التأثير في الناس وكسب ثقتهم.²⁴

فالإيحاءات يُتوصل إليها بعد النظر والوقوف على المعاني المباشرة، إذ إن الإيحاء هو منزلة غير مباشرة من منازل المعنى²⁵، فمثلا السياسي يُخفي المعنى ولا يُصرّح به، إمّا أنه يتركه إلى ذكاء المتلقي، أو أنه لا يريد أن يُدخل عليه المعنى الذي يريده لحسابات معينة، فالدلالة ترتدّ إلى المخزون الدلالي في ذهن المتلقي، بينما الإيحاء يرتدّ إلى مخزون من العلاقات بين الدلالات.

والإيحاء يُضفي على المفردات طبيعة خاصة، حيث يُفجّر الوظيفة الانفعالية في المتلقي، وتأخذ الكلمة انطلاقاً سحر إبداعها لما تتمتع به من طاقة عالية وقدرة فائقة على ذلك، فالإعلامي بكلماته السحرية الموحية يمكن أن يهزّ مشاعر العالم كلّه، ويستطيع من خلالها تغيير معادلة مجريات الأحداث، حيث يمكن لهذه الكلمة أن تُسقط حضارات ودولاً.²⁶ ولعلّ معظم الحضارات التي سقطت على مرّ العصور بعد بلوغها أوجّها رقياً وازدهاراً وقوة واستقرار سببه كلمة سحرية زعزعت استقرارها وخلخت نظامها، فتهاوت بعد شموخها وضعفت واستكانت، وما وقع في عصرنا هذا من سقوط لأنظمة في عدة دول خاصة العربية منها كالعراق وليبيا واليمن وغيرها سببه تلك التقارير الأمنية التي تتضمن كلمات سحرية موحية جعلت القوى الكبرى تتخذ قرارات بإعلان الحرب على تلك الدول وإسقاط أنظمتها. والكلمة موروث رشيق الحركة، لها قدرة فائقة على ذلك، فهي تتغيّر من نص إلى آخر، فتتغيّر مدلولاتها بل هويتها حسب ما يقتضيه السياق، من هنا فالوقوف على إيحاء الكلمة في النفس البشرية ووقعه في المخيلة لا تُقدّمه لنا المعاجم اللغوية، لأن الدلالات المعجمية ليست هي كل دلالات الكلمة، إنما وراء الكلمة دلالات نفسية، لا يمكن الوقوف على آفاقها ودقائقها إلا إذا تمكّنّا من معرفة دقيقة لوظائف اللغة التعبيرية والأمرية والجمالية والاتصالية والانفعالية، والوظائف غير اللغوية.²⁷

إن هذه الجماليات في المعاني الثانوية التي تقف وراء المعاني الأصلية للمفردات لم يهملها الموروث اللغوي العربي، فبعض اللغويين العرب قديماً تعرضوا لها، فنجد حازم القرطاجني (684هـ) يتحدث عن ذلك ويقول: «الأقاويل الشعرية أشدّ تحريكاً للنفوس، لأنها أشدّ إفصاحاً عمّا به علق الأعراس الإنسانية، وما لهذه الأقاويل من صدى انفعالي»²⁸ كما عالج عبد القاهر الجرجاني (474هـ) قبله الدلالات الإيحائية وسماها "معنى المعنى" ويقول في ذلك: «وإذا قد عرفت هذه الجملة، فهنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: (المعنى) و(معنى المعنى)، تعني بـ(المعنى) المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، و(معنى المعنى) أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يُفضي بك هذا المعنى إلى معنى آخر»²⁹

فالجرجاني يصنف اللفظ والخطاب عموماً إلى قسمين، قسم مباشر يُفهم من خلال كفايته اللغوية ولا يحتاج إلى جهد في الوصول إلى معناه، وقسم غير مباشر يُفهم من خلال القدرة الاستيعابية للمخاطب وقدرته التواصلية لتظهر المقاصد الخفية، فلا يُفهم الغرض الذي يدلّ عليه مجرد اللفظ فقط، بل التوصل إلى فهم معنى ثانٍ.

وهنا يضرب الجرجاني أمثلة كثيرة من البلاغة العربية مستخلصاً من الأمثال والحكم المعاني الثانية كدليل على طرحه، ومن ذلك فهم الفرد من عبارة (كثير الرماد) أنه مضياف، ومن عبارة (نؤوم الضحى) في المرأة أنها مترفة ومخدومة.³⁰

ويؤكد الجرجاني في موضع آخر أن الدلالات الإيحائية أو المعاني الثانية تختلف من فرد إلى آخر فيقول عن هذا النمط من الدلالة بأنه: « كالجوهر في الصّدَف لا يبرز لك إلا أن تشقّه عنه، وكالعزير المحتجب لا يُريك وجهه حتى تستأذن عليه، ولا كل خاطر يُؤذن له في الوصول إليه، فما كل أحد يفلح في شقّ الصدفة»³¹

من خلال ما سبق خاصة طرح الجرجاني يتبيّن لنا أن بعض الدلالات لا تظهر للوهلة الأولى، بل يجب التمعن في جوهر الخطاب المتكوّن من تفاعل الدوال، والنظر في الدلالات والمعاني الكامنة وراءه دوالها، الشيء الذي يجعل الفهم يختلف من متلقٍ إلى آخر، وهذا هو السرّ في استعمال الإيحاء في الخطابات المختلفة التي يهدف أصحابها من وراءها إقناع الأطراف المتلقية أو توجيه الرأي العام.

إن ما ذهب إليه الجرجاني في حديثه عن المعنى ومعنى المعنى هو نفسه ما تقرّره

اللسانيات الحديثة بمصطلحات عدّة، فـ "يلمسيليف" مثلاً يسمّيها الدلالة التقريرية والدلالة الإيحائية، وقد سُمي معنى المعنى حديثاً بالنص الغائب أو الدلالة الهامشية.³²

وتحتل الدلالة الإيحائية مكانة مرموقة في لغة الإعلام بمختلف توجهاته³³، فالإعلامي

يهدف إلى إثارة القارئ من خلال استعماله للمفردات، حيث يجعله يُمعن النظر في معانٍ

أعمق من الظاهر وأبعد لفهم ما وراء الكلمات من دلالات هامشية، وتحريك مشاعره، فضلاً

عن إضفاء الوظيفة الجمالية على التعبير الإعلامي، فالنص لا يكتسب لذته إلا من خلال

الغوص في أغوار الأبعاد الجمالية التي تعمقها الدلالات الهامشية.

والدلالات الإيحائية بمثابة الطاقة الشمسية، فيزودون مفرداتهم المناخ المناسب لتتوافق وميول المتلقين وعقولهم وتوجهاتهم، ويختارون منها تلك التي لها صدَى عاطفي في النفوس لتحقيق الغايات المرجوة.³⁴

من خلال ما سبق يتبين لنا أهمية الدلالات الإيحائية في توجيه الخطابات المختلفة، وفي توجيه الرأي العام بشكل عام، حيث تتحدد أهميتها وأهدافها من خلال توظيفها توظيفا سحريا تتم بواسطته التعبئة المرادة.

5 2 - التضمين:

التضمين باعتباره ظاهرة لغوية هو أسلوب مرتبط بالذوق، يلجأ إليه الفرد لغرض بلاغي عند البلاغيين، أما عن النحاة فقد أوماً إليه سيبويه عندما أجرى الفعل "دعوته" مجرى الفعل "سميته" في التعديّة، وأقرّه ابن جني حينما رأى أن التضمين وارد بين لفظين بينهما تقارب دلالي، كما أقرّ مجمع اللغة العربية بالقاهرة أن التضمين هو اتساع في المعنى.³⁵ إن التضمين هو المسيطر في لغة الإعلام، فكما أصابت وسائل الإعلام تقدما اتّجهت باللغة إلى المجاز، فهو أكثر إثارة لذهن المتلقي، بالإضافة إلى أنه وسيلة تُخفي ما يُراد إخفاؤه كانسحاب جيش من معركة ما، فلتغطية حقيقة الانسحاب أمام الرأي العام يقال: "الانسحاب وفقا للخطة الأمنية"، أو لإخفاء حقيقة الاحتلال يقال: "انتشار لتحقيق الديمقراطية".

فالتضمين وظيفته جوهرية في لغة الإعلام، فهو يُسهّم في إثراء اللغة بمدّ من الدلالات تنتسب من خلاله العوامل التي تؤثر في معاني الكلمات لتؤدي وظيفتها الإبلاغية.³⁶ وكثيرا ما يُفسر التضمين في ظل المعاني المختلفة بلغة الإيجاز، ففيه من الإيماء والتلويح ما لا نتلمسه في المكاشفة والتصريح، لأنه أسرع وقعا في النفس وأكثر إثارة للمتلقي.³⁷

5 3 - المجاز:

إذا كان للمجاز باعتباره ظاهرة لغوية أثره البارز ودوره الفاعل في اللغة، من خلال تكثيف الدلالات وتعميقها، فدوره في لغة الإعلام السياسي في عصرنا هذا لا تقل أهمية، نظرا لتضمّنه دلالات كثيرة فيها الإيماء والتلويح، واستعماله في اللغة الإعلامية لم يكن مألوفاً من

قبل من حيث الدلالة وطبيعة التراكيب المؤلفة له، وهذا التحديث في الاستعمال خلق لغة داخل لغة، الشيء الذي جعل الخطاب الإعلامي باختلافه يعرف حركية وحيوية كبيرتين، وجعل الإعلامي ييوج بدلالات مختزلة في مفردات مجازية مؤثرة، وتأثيرها في المتلقي يكون كبيرا، إضافة إلى الوظيفة الجمالية التي يفجرها من خلال خرقة المستوى الاختياري الذي تتغير فيه الدلالات في الخطابات.³⁸

إن الرسالة الإعلامية إذا تحققت في النص الخبري من خلال الخطاب المجازي، فإنه يدخل تحت علم النص، الذي يعتمد القبول المتضمن موقف مستقبل النص إزاء صور اللغة التي ينبغي أن تكون مقبولة.³⁹

فاللغة الإعلامية إذا تتسم بالبحث عن الرائج والمؤثر الذي يتم من خلاله التوصل إلى الأغراض الإعلامية المختلفة المرجوة، وتحقيق مكاسب عدة، أكثر من بحثها عن الأصيل أو المتألق لذاته في المجالس الإقناعية.

واستخدام العبارات المجازية في لغة الإعلام مرهون بتقدم وسائله، فكلما تطورت وسائل الإعلام وزاد الوعي في الإعلام اللغوي اتجهت اللغة نحو الاستعمال المجازي أكثر، لأن اللغة المجازية أكثر تأثيرا في المتلقي وأشدّ وقعا في نفسه من لغة التصريح، وفي التعبير عن المعاني المرادة من جهة، وتوسيع نطاق اللغة وترقية مفرداتها بإضفاء دلالات جديدة عليها.⁴⁰

إن اللغة المجازية اليوم أصبحت في لغة الإعلام أكثر حضورا وأشدّ إثارة، وبالتالي الوصول إلى الأهداف المرجوة من خلالها، وتكاد أن تكون واحدة في العالم بأسره خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ألفين وواحد، فتوحدت العبارات المجازية في أرجاء العالم كونها تعبيراً عن الحدث الذي هزّ العالم، وغير الكثير من المجريات والمعادلات السياسية، وأصبحت التعابير المجازية تحمل دلالات الأحداث السياسية التي تصنع التاريخ بأطروحات مؤسسات إصدار القرار، حيث تُنتج أفكارا على مقاسها من أجل تحقيق مقاصد أمنية مضمرة.⁴¹

إن للتعبير المجازية دورا فاعلا في قبول القرارات والمشاريع السياسية والاقتصادية والثقافية من خلال اختيارها وفق ما يتناسب وأحداث الساعة، لإضفاء الشرعية على هذه القرارات، ويتم ذلك باختيار كلمات شاملة وبراقة ونقل المعنى من سياق مقبول إلى سياق يُراد قبوله، وخط الأمر على الجمهور، واستغلال الظروف النفسية لهم في ظلّ معلومات يصدّقونها، فتجعلهم أكثر تصديقا واستجابة لهذه القرارات والمخططات.

إن كيفية استعمال التعبير المجازية تُحدّد مدى التأثير في المتلقي، فإجادتها يمكن أن تدفع الناس إلى الخروج إلى الشوارع للمسير أو التظاهر، وإلى تحريض مجموعة على قذفهم بالحجارة أو التصدي لهم أو نحو ذلك⁴²، كما وقع في كثير من البلدان في الآونة الأخيرة، فاللغة إذا بإمكانها إخفاء دوافعنا الشريرة وسلوكنا السيء، أو إبراز تطّعاتنا النبيلة ومثلنا العليا.

إذا فاللغة الإعلامية هي لغة المجاز والقوة، وهي لغة القرار كذلك ولغة الحرب والتشريعات، فالإعلامي والخبير الدعائي يضيفان على التعبير المجازية معانٍ إيحائية مشحونة بدلالات خفية خلف الفعل الحركي متضمنة رسالات شتى⁴³.

إن ما يحدث في العالم اليوم من غزو البلدان واحتلالها باسم الحرب على الإرهاب، ومن نهب لثروات الشعوب وممتلكاتهم بدعوى الإصلاح وتغيير الأنظمة، ومن كسر للمنظومات الأخلاقية والاجتماعية باسم التحرر، ومن تدمير للبنى التحتية للدول بدعوى إعادة إعمارها وفق ما يقتضيه العصر ومتطلبات الدولة العصرية، كل ذلك سببه تقارير أمنية استعملت تلك اللغة التي تخفي في طياتها رسائل مخفية.

من خلال ما سبق يمكننا أن نقول : إن اللغة الإعلامية باختلافها وبتنوع أساليبها تُثري اللغة بمفردات كثيرة ودلالات جديدة، وتوسّع استعمال المفردات والعبارات للدلالة على أحداث جديدة، الشيء الذي يجعل اللغة في حركٍ يجرّ دائما توابك كل تطورات العصر وأحداثه.

ومن جهة أخرى فاللغة الإعلامية هي وليدة اللغة نفسها، فهي تستعمل مفردات اللغة وعباراتها وحتى دلالاتها بتغيير المواقع بينها، فنتج بذلك دلالات جديدة وتعابير مقنعة، فمادتها ونسيجها إذاً هو اللغة.

خاتمة:

من خلال ما سبق يمكننا الحكم على أن العلاقة بين اللغة والمجتمع علاقة متداخلة ومعقدة إلى حد كبير، حيث لا يمكن الفصل بينهما، إذ اللغة هي إحدى عوارض هذا المجتمع وأهم نواتجه، ولا يجب أن نتعامل معها على أساس أنها وسيلة تواصل بين أفراد المجتمع وأداة قضاء حاجاتهم وأغراضهم فحسب، بل يجب أن ننظر إليها على أساس أنها عنصر هام في تكوين المجتمع وصيرورته، وأن ندرسها على هذا الأساس. إن أية دراسة للغة أو ظواهرها يجب أن تضع في حساباتها المجتمع الذي توجد فيه، لأن اللغة اتفاقات اجتماعية حاصلة بين أفراد المجتمع، فلا وجود للغة خارج إطار المجتمع، فهي نشأت وترعرعت وتطورت في أحضانه، كما استقت خصائصها وألفاظها وتراكيبها وعرفها بشكل عام من خصائصه ومميزاته ومكوناته. وبالمقابل فإن أية دراسة للمجتمع لا بد أن تراعي الخصائص اللغوية السائدة فيه، بل من خلالها يمكن التعرف على المجتمعات وخصائصها، فضلا عن أن الدراسات المختلفة لا تكون إلا بها.

الهوامش:

- 1 - هذا العنوان مقتبس من لدن اللساني "عبد السلام المسدي" في مقاله الذي يقدم فيه لكتابه "السياسة وسلطة اللغة" ، المنشور في مجلة العربي العدد 588، الكويت، 2007.
- 2 - محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الكبير، مج 4 الولاء والهيئة - الأمثال، تح: بشار عواد معروف، الحديث رقم: 2517، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ط1)، 1996، ص 285.
- 3 - ينظر: سلمان مصالحة، بين اللغة والسياسة، (مقال) منشور في جريدة الحياة الرقمية، 2002، ص 9، على الرابط التالي: <http://www.alhayat.com/article/1104864>
- 4 - ينظر: ابن خلدون، المقدمة، تح: خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د، ط)، 2007، ص 586.
- 5 - المصدر السابق، ص 592.

- 6 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 7 - ينظر: عبد السلام المسدي، السياسة وسلطة اللغة، مجلة العربي العدد 588، الكويت، 2007، ص44.
- 8 - ينظر: المرجع نفسه، ص 29.
- 9 - ابن خلدون، المصدر السابق، ص 612-613.
- 10 - ينظر: سلمان مصالحة، بين اللغة والسياسة، ص10.
- 11 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 12 - ينظر: إبراهيم فضل الله، علم اجتماع الأدب -مناهج وتطبيقات، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، (ط 1)، 2015، ص 49.
- 13 - ينظر: المرجع نفسه، ص 49-50.
- 14 - ينظر: كريم زكي حسام الدين، اللغة والثقافة -دراسة أنثروولوجية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (ط2)، 2009، ص 25-26.
- 15 - ينظر: المرجع نفسه، ص 26.
- 16 - المقصود هنا هو أن أفراد المجتمع الواحد إذا كانوا منحدرين من أصل واحد فلغتهم واحدة، وإذا كانت كذلك فلغة التواصل واحدة، ولا يكون هناك تنازع لغوي بينهم، وهو ما يضمن استمرارية هذه اللغة، واحتلالها مكانتها التي تستحقها، فكثير من المجتمعات المتجانسة ما عدا في الأصل يكون فيها التنازع اللغوي انتصارا للغة أقلية معينة من قبل أفرادها، الأمر الذي يؤدي بهذا التجانس إلى اختلال في النظرة إلى اللغة، من هنا تفقد اللغة مكانتها أو تتراجع بسبب ذلك.
- 17 - ينظر: محمد حايل، نسق اللغة - فرضيات التكوين وإشكالات الصيرورة -تمهيد لنظرية لغوية في علم الأصول، عالم الكتب الحديث، الأردن، (ط 1)، 2012، ص 83.
- 18 - ابن خلدون، المقدمة، ص 598.
- 19 - ينظر: إبراهيم فضل الله، المرجع السابق، ص 50.
- 20 - ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 21 - ينظر: صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ط)، 2010، ص 237.
- 22 - ينظر: المرجع نفسه، ص 240.
- 23 - ينظر: سيروان أنور مجيد، النصية في لغة الإعلام السياسي، عالم الكتب الحديث، (ط 1)، الأردن، 2013، ص 3 المقدمة.
- 24 - ينظر: عبد العزيز شرف، علم الإعلام اللغوي، دار نوبار للطباعة، القاهرة، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، (ط1)، 2000، ص 193-194.
- 25 - ينظر: سمير شريف استيتية، اللسانيات (المجال والوظيفة والمنهج)، عالم الكتب الحديث، الأردن، (ط 2)، 2008، ص283-284.
- 26 - ينظر: سيروان أنور مجيد، المرجع السابق، ص41.

- 27 - ينظر: المرجع نفسه، ص42.
- 28 - حازم القرطاجني، منهج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، (ط 3)، 2008، ص 118.
- 29 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد، شاکر، دار المدني، جدة، (ط3)، 1992، ص263.
- 30 - للتوسع ينظر: المصدر نفسه، ص262 وما بعدها.
- 31 - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط 1)، 2001، ص108.
- 32 - ينظر: سيروان أنور مجيد، المرجع السابق، ص43.
- 33 - ينظر: المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
- 34 - ينظر: عيسى برهومة، تمثلات اللغة في الخطاب السياسي، ص45.
- 35 - ينظر: سيروان أنور مجيد، المرجع السابق، ص 65-68.
- 36 - ينظر: المرجع السابق ، ص 69.
- 37 - ينظر: المرجع نفسه ، ص 70.
- 38 - ينظر: عيس برهومة، المرجع السابق، ص 80-81.
- 39 - ينظر: روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، مصر، (ط 1)، 2007، ص 104.
- 40 - ينظر: سيروان أنور مجيد، المرجع السابق، ص 82.
- 41 - ينظر: المرجع نفسه، ص 82-83.
- 42 - ينظر: المرجع نفسه، ص 86.
- 43 - ينظر: عبد العزيز شرف، اللغة الإعلامية، دار الجيل للطباعة والنشر، بيروت، (ط1)، 1991، ص95.